توفيق صايغ

ايضاً وايضاً

قصائد حبّ

لان العصيّ في يدينا تشابهتْ
وعلى كتفيْنا المعدّاتِ والزواويدْ ،
أ على بوصلاتِ اقدامنا
ان تتوحّد في الاتجاهْ ،
وعلى اوتاد خيمتيْنا
ان تتصادمْ ؟

لان مسراكِ ومسرايَ
الكفيفيْنِ تقاطعا
مرةً
فالقيتُ حملي فككتُ السيورْ
ورحتُ أغرسُ أبتني ،
أ تزيحين من بيننا السياجْ
تُقيمين حولَنا السياجْ ؟

لان عدّادَ رجلي
سجّل اضعافَ عدّادِكِ
(ولو ان خطاكِ في الليالي
اخفُّ من خطايَ
وتسرينَ في وقفاتِكِ
ابعدَ مني بتجوالي) ،
فكلتْ قدمايَ وارتميتُ ،
أ توقّعتُ ارتخاءَ قدميكِ ،
أ اذهلني

انكِ أويتِ ، حين أويتِ لي ،
لواحةٍ بصحراءَ مديدة ؟

وعدتِ تسعينَ ، واسعى .
لان سعيَنا والتعطّشَ واحدٌ
وكلينْا يفتش عن جزئه الفقيدْ ،
سنلتقي من جديدْ ؟
تساوى سعيُكِ وسعيي ،
توازيا :
وهل يلتقي المتوازيان ؟

في سني النفيِ
انستنيَ النفيَ ،
ساعةً ساعتينِ في النهارِ ،
حفنةٌ من ترابِ
رافقتْني بتجوالي
غيرَ ذاتِ ثِقلْ .
بعدتُ عن ارضي
حملتْ ارضي اليّ ؛
داعبتُها لاعبتُها
كحبيبةٍ كمسبحةْ ؛
حمتْني شدّدتْني
شدّتْنيَ للارضِ ، ارضي ،
علّمتْ قدميَّ التقدمَ للورا .

نثرتُها في الهواء ، ذرّيتُها ،
هواءِ وطني الخانقِ ،
قدّمتُها ذبيحتي
لا نباتاً لا حياةْ
في اللحظة الاولى

في بلادي .
على وجهي ارتميت .

ارضي بوارٌ ،
مُدْنُـها صوامتْ ؛
هجرتْها العقبانُ حتّى ،
اشجارُها اجتُثّتْ ،
تراُبها وحلٌ وبرازْ .
ليستْ ليَ الارضُ هذي
لم ارَها فيما مضى ،
قلبي بعيدٌ
تجدُّ قدمايَ في لحاقِهْ .

تسعيانِ للمنفى ، من جديدْ ؟
تسعيانِ للمنفى .
ارضي لم تكنْ ارضي
التي عدتُ امسِ اليها :
حفنةُ ترابٍ
فقدُتها
ارضي .

في باحةٍ تكتظُّ بالنُصُبْ
(دارتي معبدي المتحفُ)
إخترتَ ابهاها لي
وأحطتَ ما بقي
باسلاكٍ شائكةْ .

إنتقيتَ لي
النقيَّ المتّقدْ :
ساطعاً تحتَ شمسْ

وكيف لي ان اعرفَ
(فنّانٌ انتَ ، ام مُشعوذْ ؟)
انكَ من ثلجٍ صنعتَهْ ؟
وشمسُنا مثلَكَ قاسيةْ
ومثلَكَ تغيرُ وتغارْ .

أيُّهذا الثريُّ المقتَرُ
جُدْتَ عليكَ
بشرساءِ الدعابةْ :
اغدقتَ عليّ العطايا
وبقرْتَ راحتيّ .

لعينيْنِ من روما ،
يافعتيْنِ ، والسنونُ اجيالْ ،
جُرّحتا ، جُرّرتا
خلف الجياد الطافرةْ ،
وُئِدتا في المغاورِ ،
نُبِشتا ليمتلي جوفُ أسدٍ
او لتُفرغَ ظهورُ عساكرَ
تطلّعتا ، توثّبتا ،

لعينيْنِ جليليتيْنِ ،
كهلتيْنِ ، مقبرتيْنِ
للبريقْ ، فُقِئتا ،
مُرّغتا في الوحلِ ، أُعيدتا ،
دمعُهما بولُ الغزاةِ والهراطقةْ ،
مُسمِرتا ، تُركتا
لتفسدا من غير دفنْ ـ
تطلّعتا ، ووثبتا ،

هاربتيْنِ ، مذعورتيْن :
كأخٍ ، فجأةً رأى
في نظراتِ اختهِ الصغيرةِ لهْ
حبًّا مخيفاً محرّما
أبتْهُ الارضُ والسما –
فولّى هائما
تحتُّ خطاهُ
(ليس يدري)
الشهوةُ ام الهلعْ .

يجبروتٍ اجتحْتني .
أحكمتِ بدقةِ الخطط
تخذتِ كلَّ احتياطْ ،
وشهدتُكِ داخلَ حصني
تتقاعسينَ ، ترينَ
اسواري مُزْوَجةً مثلّثةْ .

ولم تدركي
اني تخذتُ من الاحتياطاتِ ما تخذتِ
واحكمتُ مثلكِ الخطط
وجرّدْتُني
لاجلكِ
من كلّ نصلْ ،
واعددتُ ، اسمقَ من
اعلامكِ ، اعلامي .

هتفتُ لك داعياً ،
خلتِ هتافي نفيرا :
حفرتِ الخنادقَ وتهيأتِ
لطويلِ حصارْ .

ولم يكن من مُدخلٍ لكِ
فيّ غيرُ الخيانةْ .
فخنتُني
لاجلكِ
وساكنيّ والتراثَ
وصفتُ مجوهراتٍ لكِ
تقدماتِ معابدي المقدّسة .
واجتحتني يجبروتٍ
غيرِ مبرّرْ .

ولم ادركْ (كيف لم ادركْ ؟)
ان خيانتي التي
رأيتُ فيها سبيلَ الوصالْ
ستكون المفرّقةْ ،
وان اقتحامَكِ لي
لديكِ لاجلِها للحضيضِ وانسحابٍ
لا تعايشْ ،
وانكِ اذ تهجرينَ وابقى
بلا انتِ
سابقى بلا ايضاً انا .

عقربٌ في يدي ، لا قلمْ ،
اخافهُ ، ارتدُّ عنهُ ،
كالورَقة . رباطٌ لقاؤهما
غيرُ مقدّسْ ،
ثمراتُه مسوخٌ ، انصافُ انسٍ
انصافُ وحشٍ وجنّ .

في اضطرارٍ اجيئُهُ ،

برؤوسِ اصابعي ،
غبَّ التململِ والفزعْ ؛
لمسُهُ يزيد التململَ
والرجفةَ والعرَقْ .
(ما لهذا حقدي عليهِ ، نقمتي ،
ولا لانهُ ، عندَ اللجوءِ ،
ينحرفُ بي عن غايتي
ويُضعفُ ما شئتُ ان اقولْ):

لانهُ ،
وهو الوحيدُ الذي
يعرفُني ويعرُفكِ ،
يغنّيكِ ، ينقلُ اخبارَ ايامِنا ،
يصمتُ الا
عن الهجاء والرثا ،
لا يذكرُ الا الصفَعاتِ والمآسي ،
يُخطّطُ حدودَ الجحيمْ ؛

لا يعرفُ
كيف يَروي سياحاتِنا
لضواحي السحرِ
لاحضانِ الالهْ ،
واختطافَنا ، من بين شدقيِ
الموتِ ، بذرَ الحياةْ .

لانكِ فيهِ
نافيتي فحسبُ
لا منفايَ ، موطني الثاني ،
ويُمزّقني مُنزلتي من الذُرى
لا شتيتَ اوصالِ

ضربتْها الصواعقُ من علِ
ومن هنا الحرابُ
وانيابُ الضواري .

ألا بركانَ ،
مدينتي الناضرة
(تكتظُّ بالقادمينَ
تعجُّ بالوافدينَ
وقورين صبحاً عابثين بعد الظلام
ينهالون عليكِ

لكلِّ ما اشتهى
مرحبةٌ باسمةْ
« تجيعينَ حيث تشبعينَ »
كحيّة مصرَ الميّتة ،
وتجوعينَ
ويلاهُ
حيث تشبعين) ،

ألا بركانَ
يهدُّ الملاهي والمباني الشواهقْ
يجتثُّ هباتِ الطبيعة ؟

ألا بركانَ
(لا تغنِّ لي
رقّةَ الحبِ ولينَهْ)
يصبُّ اللظى
يحفرُ الاخاديدَ
يعفّرُ الجوَّ
يلوّثُ المجاري
يجوّرُ الطرُقاتِ اليكِ

ولا يُبقي معالمَ
شبهَ قوائمْ ؟

ألا بركانَ ،
فآتيكِ
اقلّبُ اقبّلُ الاحجارَ
بقيةَ ايامي –
عالماً تَخِذَ الخرائبَ عالَما ،
ناسكاً تَخِذَ الانقاضَ إلها ؟

صلبتْني في جمعةٍ .
وجئتِني ، بلهفةٍ بفزعْ ،
تكسّرينَ الختمَ
تدحرجينَ الصخرَ
بعدَ لأيٍ ، في أحدْ :

تبحثينَ عن موضعٍ
في يدٍ او قدمْ
لم يثقّبْهُ مسمارُ
تغرزينَ فيه مسماراً واظفارا ،
تتيقّنين ان قطرةً
من دمٍ لم تتبقْ
او نسمةً من حياة ،
تفقئينَ المقلتيْنِ
تشقّفينَ الجثةَ
يُنعشكِ النتنْ ،
تَخرجينَ بالرممْ
تنثرينَها : فلا بعثَ
ولا وقايةَ قبرٍ او كَفَنْ .